تابع لأصالة المنهج في سيرة الملك عبد العزيز

المعاصرة في سيرة الملك عبد العزيز:

المعاصرة صنو الأصالة، ذلك أن الدين الحنيف في شموله وكماله وخلوده غير مقيد بحد زماني أو جغرافي أو عرقي، وعلى هذا فالمعاصرة من لوازم ذلك، وان إبراز هذا الجانب المشرق من خصائص الدين الحنيف في عصرنا خاصة أمر يتطلبه البحث العلمي ذو الصلة بتاريخ الدول الإسلامية المعاصرة، وإن وعي هذه الحقيقة الخالدة من أصالة الفكر السياسي المعاصر وهو ما كان ماثلا في ضمير الملك عبد العزيز وجهاده ومنهجه.

وما من ريب أن في نموذج المملكة العربية السعودية مثالاً يحتذى للدولة الإسلامية المعاصرة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، إذ تأخذ من دينها العقيدة والشريعة، ومنهج الحكم، والقيم والآداب، وكل ما تتطلبه الحياة الإنسانية السعيدة السوية، وفي الوقت ذاته ترحب بكل ما أنتجته الحضارات المعاصرة مما يعود على المجتمع بالفائدة والنفع ولا يضره في عقله وأخلاقه ودينه.

قال رحمه الله: "إن تقدم المسلمين ونهوضهم من الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله، ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم والتمسك بعقيدتهم الصحيحة، والاعتصام بحبل الله، والطريق إلى ذلك واضح معبد لمن أراد سلوكه وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالي من الشرك والبدع، والعمل بما أمرنا به الدين لأنه لا فائدة من قول بلا عمل"١.

ولعله من المناسب هنا إيراد الحوار الصحفي التالي ذي الدلالة الواضحة على قضية المعاصرة في منهج الملك عبد العزيز وفكره النيّر:

الكاتب الإنجليزي "دوم لا ندو" كتب لقومه هذا الحوار:

* هل تجدون جلالتكم أن من الممكن الاستمرار بإجراء معاملاتكم السياسية على أساس معتنقاتكم الدينية ؟.

نعم . إنني لا أعتقد أن بإمكان المرء أن يحكم دولة من دون أساس ديني، لقد التزمت بذلك طيلة حياتي، وهذا ما أرجوه على الأقل، وسوف أبذل جهدي للاستمرار في هذا الالتزام مستقبلا.

* ولكن أليست هناك حالات كثيرة لا يمكن فيها التوفيق بين الإسلام والسياسة التي تقتضيها الظروف المتغيرة في زماننا الحاضر؟.

في كثير من الأحيان توجد لدى الأجانب فكرة خاطئة عن الإسلام، إن الإسلام ربما كان أكثر الأديان عملية، إن الإسلام يسمح لك بأن تدخل مبتكرات مثل السيارات أو الراديو [وهنا رفع الملك صوته وتكوّن لديّ انطباع بأنه لم يكن يتكلم إليّ وحدي، بل أيضا إلى الذين كانوا يجلسون في مؤخرة الخيمة ولم أستطع تبين شخصية أولئك الجالسين، وربما كانوا من أبناء الملك أو الوزراء أو علماء الدين، ولكن كان من الواضح أنه يستغل المناسبة للحديث إليهم بصورة غير مباشرة].

واستطرد الملك قائلا: إن الإسلام يعترف بكل شيء يؤدي إلى تحسين ظروف الحياة طالما أن هذه التحسينات لا تؤدي إلى القضاء على التعاليم الأساسية للرسول صلى الله عليه وسلم إن الإسلام يؤيد مثل هذه المبتكرات، لأن الإسلام يعمل على تحسين حياتنا الجسدية والروحية في آن واحد [استخدم الملك هنا كلمة "دينية" وليس كلمة "روحية " ولكنني تعلمت بالتجربة المعنى المقصود].

* وكيف تقومون جلالتكم بتحديث الحياة العربية على النمط الغربي دون إضعاف الروح الدينية في البلاد؟.

إننا لا نقبل من الغرب أي شيء غير المنافع المادية لحضارته، لا تنس أن الشرق لا يؤمن بالنواحي الروحية في الحضارة الغربية، والشرق في الواقع لا يؤمن بأن هذه الحضارة تجسد أي

١مع عاهل الجزيرة العربية ص 20.

قيم روحية على الإطلاق، وهكذا فإننا نكتفي بقبول تلك الأشياء الضرورية لتحسين حياتنا الخارجية، ويجب علينا بالطبع التزام الحرص من أجل حماية ثقافتنا كي لا تتأثر بالنفوذ الغربي، إن قبول السينما – على سبيل المثال – لا يعني قبول تلك الأفلام الضارة التي ينتجها الغرب، وسيتعين علينا الاقتصار على الأفلام التعليمية والأفلام التي تدعو إلى القيم الأخلاقية.

* ما هي الوسائل التي تنوون استخدامها في الحفاظ على الروح الدينية للجيل الصاعد في المملكة العربية السعودية؟.

عن طريق التعليم، إن ثقافتنا ومعرفتنا تقومان على أساس الإسلام، وعندما نقدم المعرفة للناس فإننا نملؤهم أيضا بروح الدين.

* هل ينطبق ذلك أيضا على أبناء جلالتكم؟.

بالطبع، وإلى جانب التعليم الصحيح يجب أن يتعلموا أيضا عن طريق المثل الصالح، لقد رأى أبنائي منذ بداية طفولتهم مدى أهمية الدين في حياة والدهم، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تصبح قوة الدين متأصلة في نفوسهم أيضا.

* هل تجدون أن الإسلام متمم للعمل السياسي وأنه ليست هناك ضرورة للفصل بين الدين والسياسة، وبين الأخلاق والسلوك السياسي؟.

إن السياسة الصحيحة يجب أن تقوم على أساس الدين وإلا فإن هذه السياسة ليست صائبة، ولا يمكن الفصل بين السلوك السياسي والسلوك الأخلاقي، إنني لا أعتقد أن هناك ضرورة للفصل بينهما على الإطلاق، كما أنني لم أر مطلقا كيف يمكن فصلهما، إن الإسلام قوة كبيرة للغاية في حياتنا وفي سياستنا.

* وماذا بشأن التجارب التاريخية السابقة، ألم يكن هناك حكام مسلمون كثيرون يدعون أن مقاييسهم تقوم على أساس القرآن، ولكنهم كانوا يتصرفون بصورة غير دينية وغير أخلاقية؟.

يجب عليك أن لا تنسى أن الإسلام أسيء استخدامه على مدى مئات السنوات، وأضيفت إليه بدع ليس له علاقة بها على الإطلاق أو بعيدة عن التعاليم الأصلية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم إن كثيرين من الحكام المسلمين أدخلوا تفسيرات تتفق مع أهدافهم السياسية، وبذلك تؤدي إلى تبرير أفعالهم السيئة وهكذا تدهور الإسلام، وكل ما فعلته هو أنني عدت إلى التعاليم الأصلية كما وردت في القرآن الكريم وفي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأساس الذي نقيم عليه حياتنا في المملكة العربية السعودية، إن العقيدة نفسها لا يمكن أن تكون لها قوة كبيرة – مهما بدت صائبة – إذا لم يمارسها الداعي إليها في حياته اليومية، والشيء الذي أحاول اتباعه في حياتي هو مثال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي اتبع فيها تعاليم القرآن الكريم.

* وهل تعتبرون جلالتكم أن مهمة المملكة العربية السعودية هي أن تكون جسرا بين روحية الشرق ومادية الغرب؟ وإذا كان الأمر كذلك ما هي الوسائل التي يمكن استخدامها في تحقيق هذه الغاية؟.

لدى الدول الإسلامية كلها مهمة من هذا القبيل، ويعتمد النجاح في تنفيذ هذه المهمة على مدى التعاون مع الغرب، لأننا لا نستطيع تنفيذها إلا بفتح أعيننا على حقيقة الإسلام، وجعلكم تدركون المزيد بشأن أنفسنا وبلادنا، ومن ناحية أخرى يجب علينا أن نتعلم المزيد عنكم وعن أسلوب حياتكم، إن الأمر يعتمد على التفاهم المشترك، ولدينا في الوقت الحاضر الكثير من الأفكار الخاطئة عن الغرب، كما أن لديكم الكثير من الأفكار الخاطئة عنا وعن الإسلام، وبالمعرفة المتبادلة وحدها يمكن للعالم الإسلامي أن يقيم الجسر المطلوب للتعاون والتفاهم.

* ولم أكن أنوي أن أوجه إلى الملك أسئلة لها اتصال مباشر بالموضوعات السياسية، ولكنه كان يشبع فضولي بمزيج من السماحة والصبر، ولذلك وجدت في نفسي الشجاعة لكي أسأله عن القضية التي تشغل بال العالم الغربي وهو ينظر في مستقبل الشرق الأدنى، ألا وهي قضية العروبة والقومية العربية، وسألت جلالته عن موقفه من هذه المسألة.

رد الملك قائلا: إن العروبة أمر أساس، وربما تكون الصورة المرغوبة للقومية العربية مشابهة لما هو سائد في الولايات المتحدة الأمريكية، في داخل هذا الاتحاد الفيدرالي سوف تحتفظ كل دولة عربية بحاكمها الخاص وصورتها الخاصة في الحكم والإدارة، ومع ذلك يجب أن يكون هناك جهاز مركزي ينسق بين الجهود الفردية للدول المختلفة وبهذا الطريق وحده ستحصل

هذه الدول على القوة التي تفتقدها، وليست هناك أهمية كبيرة للشكل الخارجي لهذا الاتحاد، كما أنه ليس المهم من سيكون رئيسه أو أين ستكون سلطته المركزية، في بغداد أو في فلسطين، أو في أي مكان آخر، الشيء المهم هو أن العروبة يجب أن تصبح واقعا، إن الذين يعتبرونها مجرد خيال مخطئون وسوف تتحقق إن عاجلا أو آجلا إن شاء الله.

ومرة أخرى توقف الملك عن الحديث ورفع يده، وهنا جاء خادم بالشاي في أكواب سميكة وصغيرة، واحتسى الملك الشاي خلال عدة ثوان وأشار إلى الخادم بالانصراف وبعد ذلك استدار إليّ وطلب مني الاستمرار في الأسئلة.

* إذا واجهتكم مشكلة تتطلب الاختيار بين التزامكم بمبادئكم الدينية وبين القيام بعمل يمكن أن يؤدي إلى نجاح سياسي أو إلى تحقيق الازدهار لرعاياكم ولكنه لا يتفق مع القرآن الكريم، ما هو الطريق الذي ستختارونه في هذه الحالة؟.

سأختار بالطبع الطريق الذي يتفق مع عقيدتنا، لقد واجهت أكثر من مرة معضلات من هذا النوع ومع ذلك حاولت أن أعمل دائما وفقا لتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو كان ذلك يعني خسارة سياسية في ذلك الوقت.

* حتى إذا عانى شعبكم من مثل هذا العمل؟.

نعم حتى في هذه الحالة، لقد وجدت أن الطريق الديني يؤدي على المدى الطويل إلى النجاح السياسي باستمرار، ولا تنس مرة أخرى أنني لا أقوم بأعمالي على أساس أقوال الرسول وحدها ولكن أيضا على أساس ما فعله في حياته أيضا.

ومرة أخرى رفع الملك صوته وكأنه يخاطب الجالسين في مؤخرة الخيمة، واستطرد قائلا: لا شك أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم هي المصدر الأكبر لإلهامي، وإذا تصرفت وفقا لمثل هذا المثال فلابد أن أنجح في النهاية، وإذا كنت أحاول أن أكون عادلا، وغير منحاز، كحاكم فإنني أفعل ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عادلا وغير منحاز.

وسألني وقد عادت إلى وجهه الابتسامة التي كانت تضيئه عند بداية الحديث: إلى أين ستذهب من هنا ؟ وعندما أخبرته بالزعماء الآخرين الذين آمل في مقابلتهم في الشرق ثم في أوربا بعد ذلك، قال لي: إنني متأكد أنك ستجد في هؤلاء الرجال كلهم قناعات أخلاقية عميقة، والتزاما بدينهم مشابها للالتزام الذي يحكم أعمالنا في هذه الدولة.

وأدهشتني هذه الكلمات التي نطق بها الملك إلى حد ما، وخصوصا لأنني ذكرت دولة تسود فيها نظريات معينة جديدة تحل محل الإيمان بالله، ومع ذلك كان الملك جادا وكانت نبرة الإقناع المتعاطف في صوته تشير إلى فلسفته الواضحة لا تسمح بوجود أي معتقدات سوى المعتقدات التي ذكرها للتو، ومن وجهة نظري ربما كانت سياسته تعكس التعقيد الذي يرتبط بالشرق ولكن لم يكن هناك أي تعقيد في إيمانه بالله تعالى"[١].

ويُستنتج من هذا الحوار العلمي التاريخي عدد من أسس المعاصرة على ضوء الأصالة، وهي - أيضا - عوامل الاستقرار الشامل للدولة الإسلامية العصرية من خلال الفكر السياسي للملك عبد العزيز ومنهجه - طيب الله ثراه - يتخلص في الفقرات التالية:

١ - الدين الحنيف أساس النُّظُم الإسلامية بما فيها النظام السياسي، ولا ضرورة للفصل بين السياسة والدين، ولا بين السياسة والأخلاق، بل لا يمكن ذلك من الناحية الدينية، لشمولية الدين وكماله وخلوده.

٢ - الاعتزاز بالعقيدة وتأصيل كافة شئون الحياة عليها أمر مطرد لدى كل المجتمعات، وهو في المجتمع الإسلامي ألزم وأوجب، ومن لوازمه ترسيخ ذلك وتعميقه في نفوس المسلمين عن طريق التعليم والتثقيف وكل الوسائل المشروعة.

٣ - الدعوة إلى تأسيس العمل الإسلامي على قواعد العقيدة وثوابتها مسئوليات الدول الإسلامية، وهو مطلب حضاري وضرورة حياتية لحل المشكلات ونهضة المجتمعات ولتحقيق السعادة واستتباب الأمن بمفهومه الشامل.

٤ - الأخذ بكل نافع مفيد من أي مصدر كان أمر لا مندوحة عنه ولا غبار عليه ما دام لا يعارض الثوابت العقدية ولا يصادم المقاصد الشرعية.

---

١ الحوار منشور في مجلة اليمامة - العدد 1473 ص 44-48.

٥ - ضرورة التمييز بين واقع المسلمين ومصادر الإسلام، فالواقع التاريخي ليس مصدراً للتشريع حاشا عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، أما مصادر الإسلام فهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وإجماع الأمة، وفق فهم السلف رضوان الله عليهم.

ولنتأمل مقتطفات من أسلوب الملك عبد العزيز رحمه الله في تصحيح مفاهيم الناس في قضايا المعاصرة من خلال المبتكرات التي تعد من لوازم الحياة..

قال المستشرقون: "قال الرجعيون ١ عن اللاسلكي إنه نوع من السحر، وأنه من عمل الشيطان، وقال ابن سعود يؤيده الإخوان الذين يفهمون غير هذا الفهم قولا غير هذا، وأصرّ ابن سعود على رأيه ووقف يخطب فيقول: ليس في الشريعة الإسلامية ما يمنعنا من الانتفاع بطريق المواصلات الحديثة والتمشي مع التقدم العلمي، ومع هذا فإني أترك هذه الأمور للعلماء والتفت إلى العلماء وقال: هل تجدون في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ما يعارض الانتفاع بهذه المخترعات الحديثة؟ وكان العلماء قد فكروا في هذا الموضوع وقتلوه بحثا فأجابوا: كلا!"٢.

وموقف آخر: "حينما دخل المذياع المملكة اعترض بعض المحافظين المتشددين وأنكروا على جلالته استماعه للراديو واستعانته باللاسلكي والتليفون لأنهم يظنون أن بها شياطين تنقل الحديث، فسألهم جلالته يوم ذاك هل الشيطان يطيق كلام الله؟! فأجابوا بالنفي. قال: اسمعوا فإذا الراديو يذاع منه القرآن الكريم بصوت عذب رخيم تعد حروفه، وأمر بعض أتباعه بأن يسمع المعترضين في التليفون بعض آي الذكر الحكيم فدهشوا وأيقنوا أن لا شيطان ولا سحرا!!"٣.

عوامل استقرار المملكة:

لقد كانت - ولا ريب - للمنهج الإسلامي الأصيل الذي أقام عليه الملك عبد العزيز هذا الكيان الإسلامي الكبير آثار استراتيجية في استقرار أمن المنطقة خاصة والاستقرار العالمي بوجه عام، وعلى الأخص الاستقرار الداخلي الشامل على اختلاف محاوره، وهو ما ينعم به مجتمع المملكة العربية السعودية من مواطنين ومقيمين ووافدين.

ولعل من أهم عوامل هذا الاستقرار الشامل:

أ - التدين العام: .

وهو التمسك بالدين الحنيف تمسكا وسطا بيّنا بين الإفراط والتفريط، وبين التساهل والغلو، والتدين حين يسري في الناس على هذه المثابة من الرشد يستتب الأمن ويعم الرخاء، وينشر التآلف جناحيه على المجتمع، فتؤدى الحقوق ديانة وأمانة ووفاءً، ويقوم المسلمون بواجباتهم بدوافع الرقابة الذاتية، إذ الدين الحنيف في مكنونه حث على أداء الحقوق واتقاء الحرمات: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [النحل: 90].

وقد دلت تجارب الأمم أن التدين في الناس يُسلس قيادهم، إذ لا ينقاد الناس لشيء كانقيادهم للدين، بفعل ما يولده من قناعة ذاتية وباعث ذاتي في الالتزام بالأوامر والانكفاف عن الزواجر، وهذا الانقياد للدين والاستسلام له ليس مقتصرا على العرب فحسب كما يراه ابن خلدون حيث قال: "فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية" قال: والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبُعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم

---

١ الرجعيون والأصوليون والمتطرفون: اصطلاحات غربية كثيرا ما يجدها القارئ في كتابات المستشرقين، وهي في الأصل وصف لفئة تتسم بالقصور في فهم الدين وفي أسلوب الدعوة إليه، كما هو هنا في هذا السياق، لكن مدلول هذه الاصطلاحات من الوجهة الاستشراقية المعادية على الأغلب الأكثر تعم المجتمعات الإسلامية! ولا يخفى ما في ذلك من تجاوز للموضوعية والحقيقة، ولا يخفى ما تحمله تلك النظرة القاصرة من موروثات عدائية .

٢ ابن سعود: كنث ص 186 وانظر مع عاهل الجزيرة ص74 والوجيز ص116.

٣ مع عاهل الجزيرة العربية ص 64.

من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والمُلك "١.

والصحيح أنه يشترك في هذه الخصائص وذاك التأثر والانقياد الذاتي لسلطان الدين كل البشر لما للدين من هيمنة وسلطان على النفوس لا يدانيه أي عامل آخر في ذلك.

ولقد كان الملك الإمام عبد العزيز رحمه الله يدرك هذه القوة النافذة الفذة للدين، وسلطانه على النفوس، وهو يريد إعادة البناء الوجداني لشعبه إثر ما اعتراهم من بدع وضلالات وجهالات ومحن وبعد عن أنوار التوحيد.

ويصور لنا تلك النقلة الهائلة من التشتت إلى القوة أحد معاصريه فيقول:

"لقد كانت الديار النجدية هملا برهة من الزمن، لا وازع ولا سلطان ولا جامعة ولا غاية ولا مبدأ ولا هدف، ولكن لما قام جلالة الملك نبه فيهم روح الدعوة إلى الله وتوحيده الخالص، وتعهد تلك النفوس بما يوقظ فيها هذا الحس العالي، واستعمل للوصول إلى هذا الطريق المؤدية إليها:

دعوةً بالتي هي أحسن، ثم إحسان وإكرام، ثم تنبيه وزجر، ثم تأديب وقهر، وهكذا سبع وعشرون سنة راض فيها الأمور فطاعت، وضرب العاصي العاتي من الغايات فذلت له أعناقها وانقادت، وأصبح ذلك البدوي الجافي القاسي القلب تفيض عيناه من الدمع إذا ذُكّر بأمر الله واتباع ما أمر به، بل صار ذلك العاتي الذي لم يكن قلبه ليلين لأبلغ العبر لا يرى له حياة إلا بطاعة الله واتباع ما أمر به، وإلا لكانت الحياة عذابا عليه، فهو عندما يرى أعز الناس عليه لم يجد له من الألفاظ التي يكرمه بها إلا أن يدعو الله أن يعزه بطاعته لأن العمل بما فيه طاعة الله عز، والعمل في معصية الله ذل وموت وخسران للدنيا والآخرة. فالحياة ولذتها، معناها ينبغي أن تكون غايتها طاعة الله وفي سبيل الله، ذلك شعور يفيض في نفس أهل نجد بدوهم وحضرهم غنيهم وفقيرهم، وقد تجلى للناظرين في استقبالهم لأعز من يعزون"٢.

ب - الأخلاق الإسلامية:

وهي من ثمرات العقيدة ولوازمها، ومن المعروف ما يشتهر به المسلمون من أخلاق كريمة وسجايا شريفة هي من خصائصهم غرسها فيهم الدين الحنيف وعرفوا بها منذ فجر الإسلام، كالأمانة والشجاعة والصدق والكرم ومراعاة الذمم وجميل المعشر ..

قال الملك عبد العزيز: "الإنسان يقوم على ثلاث فضائل: الدين، والمروءة، والشرف، وإذا فقد واحدة من هذه سلبته معنى الإنسانية"٣.

والتميز الأخلاقي حقيقة جلية يجدها الناظرون في صفحات التاريخ وفي معاملات المسلمين الذين أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد، والخلوص من الشرك والتحرر من البدع والخرافات والدجل وكل ما يشين المسلم في دينه وعرضه ومروءته، وذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل ما يسكبه صحة المعتقد وسلامة التدين من استقامة السريرة ونقائها.

ومن عشرات الأمثلة على ذلك ما قاله مستشرق يتحدث عن أخلاق المسلمين في الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي قال:

"ولدى الوهابيين [كذا] خصال حميدة، فهم لا يسرقون قط لا عن طريق القوة ولا عن طريق الحيلة، إلا إذا اعتقدوا أن المتاع يخص عدوا أو كافرا، وهم يؤدون أثمان كل ما يشترونه وأجور كل الخدمات التي تقدم لهم بالعملة التي لديهم، يطيعون زعماءهم طاعة عمياء، ويتحملون صامتين كل أنواع المشاق وهم على استعداد لأن يتبعوا قادتهم إلى أقصى أنحاء المعمورة.

إن الحقيقة تفرض عليّ أن أعترف أنني وجدت جميع الوهابيين الذين تحدثت إليهم على جانب من التعقل والاعتدال، وقد استيقنت منهم كل المعلومات التي أوردها عن مذهبهم، ولكن

---

١ تاريخ ابن خلدون 1 / 159 (فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية) ط: دار الكتب العلمية 1413ه/ 1992م بيروت.
٢ الرحلات الملكية - د. مدحت شيخ الأرض ص 128-129
٣ الوجيز ص 48.

على الرغم من اعتدالهم لا يستطيع السكان والحجاج سماع مجرد اسمهم دون أن تتملك الرجفة قلوبهم، ولا يتلفظون به إلا همسا، لذا فإن الناس يهربون منهم ويتجنبون التحدث إليهم قدر الإمكان، وكلما أردت التحدث إليهم كان عليّ أن أتغلب على كثير من الصعوبات التي يخلقها لي من يحيطون بي، والسبب الأول في هذه العداوة أن الناس لم يفهموا للوهلة الأولى المعنى الإصلاحي لهدم المزارات، وتقويض أضرحة الأولياء التي كان المؤمنون يؤدون لها واجب الإجلال، وقد كاد هذا الإجلال يتحول إلى نوع من العبادة التي لا تجب إلا لله وحده"١.

ومع تحفظنا على بعض ما ورد في تعبير هذا الرحالة الغربي كوصفه الوهابية بأنها مذهب وأن المؤمنين يجلون الأضرحة .. مما يدل على قلة معرفته بجوهر الإسلام وحقيقته، إلا أنه ومن منظوره الشخصي قدم صورة دقيقة عما عاينه ولمسه من سمة الاعتدال والتوسط لدى سلفنا في القرنين المنصرمين، وما تمتعوا به من أخلاق الإسلام الخالدة: الصدق، الأمانة، الوفاء، المروءة، رعاية الذمة ... الخ.

وهذه الأخلاق في الحقيقة هي عوامل أساسية لتحقيق الاستقرار العام واستتباب الأمن بكل أنواعه، إذ ينعدم التجاحد، والتظالم أو يندر فتؤدى الحقوق والأمانات، وترعى الذمم ويخشى الناس ربهم وخالقهم جل وعلا قبل أن يخشوا عقاب السلطان، وتبعات الجناية.

جـ - الأمن العام وأمن الحج:

الأمن بمفهومه الشامل ثمرة العقيدة الإسلامية الصافية، ولازم من لوازم تطبيق الشريعة، إذ تزرع العقيدة في نفوس معتنقيها الرغبة في الخير للغير، وتهذب الشريعة السلوك النابي، وتهدي للتي هي أقوم من مكارم الأخلاق ومحامد الصفات، رغبا ورهبا.

وإذا طوينا - اختصارا - القرون المفضلة وما تلتها من أحقاب التاريخ إلى بداية ظهور الدعوة الإصلاحية التي صدع بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر الهجري " 1115 - 1206 هـ" نجد أن الأمن على اختلاف محاوره وعمق مدلوله ارتبط في الجزيرة العربية بالحكم السعودي في كل المراحل منذ الدولة السعودية الأولى إلى يومنا هذا فكان يستتب كلما بسط الأئمة من آل سعود سلطانهم ونعم الناس بظلهم فيهنأ بهم المجتمع ويكون ذلك حديث الناس في الأفاق، وهذه حقيقة تاريخية تتجلى في عهد كل إمام من أئمة آل سعود رحمهم الله، سواء في ذلك أمن الحج والحجاج أو الأمن العام.

ولكي تكون حلقات البحث متكاملة فلا بد من التنويه بهذه الحقيقة التاريخة التي طالما قرأها المتأملون في صفحات التاريخ الغابر وهي كذلك ماثلة في وقائع الحياة المعاصرة، وهي أن الحكم السعودي واستتباب الأمن الشامل صنوان متلازمان.

ودونك نماذج مقتبسة من مراحل الحكم السعودي:

يقول ابن بشر في تاريخ الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمه الله "المتوفى سنة 1218هـ ":

"كان الحجاج والقوافل وجباة الغنائم والزكاة والأخماس وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة وعمان وبلد العجم والعراق وغير ذلك إلى الدرعية ويحجون منها ويرجعون إلى أوطانهم لا يخشون أحدا في جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق وليس يؤخذ منهم شيء من الخاوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج، وبطل جميع الأخاوات والجوائز على الدروب التي للأعراب أحيوا بها سنن الجاهلية، ويخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان وأنقرة والشام لا يحمل سلاحا بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء "٢.

وقال التاريخ أيضا: "الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمه الله كانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة في عيشه هنية وهو حقيق بأن يلقب مهدي زمانه لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء شتاءً أو صيفاً يمنا وشاما شرقا وغربا في نجد والحجاز واليمن

---

١ جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب ص 202 تعريب قدري قلعجي، تقديم حمد الجاسر ط: منشورات الفاخرية، الرياض (دون تاريخ الطبع).

٢ عنوان المجد 128/1.

وتهامة وغير ذلك لا يخشى أحدا إلا الله، لا سارقا ولا مكابرا وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيل الجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راعي ولا مراعي بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاجون لها أهلها لسقي زروعهم ونخيلهم وربما تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها"١.

وكذلك الحال في عهد ابنه الإمام سعود بن عبد العزيز "ت 1229هـ"٢.

ولعله من تحصيل الحاصل الحديث عن الأمن في المملكة العربية السعودية وهي مضرب المثل في هذا منذ عهد الملك عبد العزيز وإلى يومنا هذا، وما من إنسان مقيم أو مواطن أو وافد حاجا أو معتمرا أو زائرا إلا وشاهد وعاين ونقل عن الأمن الأعاجيب.

ومن نافلة القول أن أهم عوامل تحقق الأمن الشامل بمفهومه العميق في المملكة تطبيق الشريعة الإسلامية لا سيما الحدود الشرعية كحد القصاص وحد الحرابة وحد القذف وحد السكر وحد ترويج المخدرات وغيرها، ولتطبيق هذه الحدود آثار ملموسة في تقلص الجرائم واستتباب الأمن تحقيقا لقول الله تعالى: **{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 179].

والحياة المذكورة في الآية هي حياة الأمن والاستقرار وتطهر القلوب من الأحقاد والضغائن التي يورثها حب الانتقام والأخذ بالثأر، والاضطهاد والاستبداد وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي تنجم في غيبة سلطان الشرع.

وهذا الذي يذكره ابن بشر وغيره من المؤرخين نجده وأكثر منه في كتابات المستشرقين الذين جابوا الجزيرة العربية في فترات مختلفة من العهد السعودي، فمن ذلك:

ما ذكره المستشرق فلبي قال: ".. وأقل ما يقال إن الحجاج الذين زاروا الحجاز آنذاك وفيما بعد خلال السنوات القليلة التي سبقت التدهور الاقتصادي المريع في أوائل سنة الثلاثين [الميلادية] لم يجدوا أي سبب يدعوهم للشكوى أو التذمر من الأخطار أو عدم تأمين سلامتهم، هذا علاوة على أن الإجراءات التي اتخذت تحت إشراف ابن سعود شخصيا في المحافظة على صحة الحجاج جديرة بالتقدير، خصوصا إذا عرفنا أنه خلال السبعة والعشرين حجا التي احتفل بها في عهده لم تقع أية حادثة كبيرة على الإطلاق، وبالإضافة إلى هذا فإن قرار ابن سعود أن يمنح الحجاج مختلف التسهيلات التي كانت ممنوعة عليهم قد زادت في راحتهم إلى حد كبير جدا، فتشجيعه استعمال وسائل النقل الآلية قد قلب الأحوال رأسا على عقب، هذه الأحوال التي يواجهها آلاف الحجاج الوافدين من الخارج، فاليوم وبعد أن استعملت الطائرات كوسيلة جديدة من وسائل نقل الحجاج لم يعد الحج بالعملية المتعبة على الإطلاق، وحتى هذا التحول المدهش لم يكن كل ما تميزت بها إدارة ابن سعود، واستحقه من تقدير في الحرص على راحة الحجاج ومصلحتهم بعد أن كانوا يجأرون بالشكوى بسبب الرسوم الكبيرة التي كانت تجمعها الحكومة منهم، مع العلم أن الاحتياطات المتخذة لتأمين سلامتهم وراحتهم تكلف الدولة كثيراً من المال..

ومهما يكن من أمر فليس للحجاج اليوم ما يشكون منه، فقد ألغيت رسوم الحج بأمر من الملك لما ازدادت عائدات الحكومة من البترول والموارد الأخرى التي جعلت بالإمكان منح الامتيازات، تلك الامتيازات التي مكنت الحكومة من تحمل كافة تكاليف التسهيلات المتزايدة التي خصصت لمنفعة جميع قاصدي الحج كطرق لسيارات الشحن الكبيرة التي تسير على المازوت وعلى شبكة من الخطوط كتلك التي بين مكة وعرفات"٣.

وقال المستشرق كنث وقد ألف كتابه نحو سنة 1950 م: "لقد عني ابن سعود بصحة الحجاج أقصى عناية، وكان لاهتمامه بتحسين مياه الشرب والشئون الصحية والمستشفيات وما إلى ذلك مما تراه اليوم في المدن الحجازية كمكة وجدة أكبر الأثر في تخفيض عدد الوفيات بين

---

١ عنوان المجد 1 / 126.

٢ المرجع السابق 1 / 174.

٣ تاريخ نجد ص353 - 354: سنت جون فلبي، تعريب عمر الديراوي ط: بيروت (دون تاريخ).

الحجاج"١.

وقال أيضا: "بعد دخول الوهابيين [كذا] لمكة صرح ابن سعود وهو في الرياض بيانا على العالم الإسلامي قال فيه: لقد دخلت جيوشنا مكة في الرابع من تشرين الأول سنة 1924م، وإننا مغتبطون أشد الاغتباط للاحترام الذي بدا نحو الأماكن المقدسة، وكان بمقدور الفاتحين لو أرادوا أن يشقوا لهم طريقا بالقوة ويدخلوا البلاد عنوة، ولكنهم أبوا إلا احترام الأماكن المقدسة فلم يسفكوا دماء أحد احتراما لتراثنا المقدس، ولقد قضينا على الظلم ونشرنا العدل في ربوع البلاد، وليس أشهى إلى قلوبنا من إقبال المسلمين على الحج من أنحاء العالم الإسلامي، الطرق مفتوحة في وجوهكم أيها المسلمون، ولن يعترض أحد لكم بسوء فاطمئنوا كل الاطمئنان، ونحن أنفسنا سنذهب إلى مكة لنجتمع بالوفود الإسلامية التي نرحب بها، وقد آلينا على أنفسنا أن نعيد إلى الحج ازدهاره ومجده القديم"٢.

لقد كان لتطبيق شرع الله عز وجل في جميع مناحي الحياة لا سيما الحدود الشرعية لقمع المجرمين العتاة الأثر العميق في استتباب الأمن في الحج وغيره، الأمن بكل محاوره: الأمن الغذائي والأمن الفكري والأمن النفسي والأمن الاجتماعي والأمن العام.

وإن الانقياد لشرع الله - مهما نعق أهل الأهواء - له الأثر البالغ في تحقيق الاستقرار الشامل الذي نتفيأ ظلاله.

قال المستشرق كنث: "وتظهر الأحكام السعودية قاسية كقطع يد السارق مثلا، ولكن هل يدري القارئ أنه منذ قرن كانوا يشنقون الرجل في انكلترا إذا سرق خروفا! ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن قسما كبيرا من رعايا ابن سعود لا يزالون يعيشون على الفطرة بعيدين كثيرا عن حالة العمران، بل إن القبائل التي تقيم في الجانب الجنوبي من الصحراء المشهور باسم "الربع الخالي" والذي كان أول أوربي وصل إليه هو المستر "برترام توماس" في سنة 1931م ثم توغل فيه المستر "جون فلبي" في سنة 1932م لا يفرقون كثيرا عن المتوحشين، فإذا استعمل ابن سعود الرحمة معهم فلا شك أنهم يسيئون فهمها ولا يقدرون قيمتها، ولهذا لا يفيدهم إلا الحاكم الجبار الذي يحكمهم بيد من حديد. وابن سعود شخصيا لا يحب القسوة، وهو ليس بالرجل الخشن القاسي في أحكامه، بل هو أحيانا يظهر اللين في غير موضعه!.

ولكنه لا يرحم أحدا إذا خالف الشريعة الإسلامية المقدسة، أو حاول الإخلال بالنظام، وكل نظام ديمقراطي سابق لأوانه قبل أن يتمكن من اخضاع امبراطوريته الشاسعة لإرادته وقبل أن يكون في وسع الإنسان أن يسير مطمئنا بمفرده دون أن يعترضه اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا فيما مضى لا يعرفون غير قطع رقاب المسافرين وسلبهم٣.

د - الأمن الاجتماعي:

من الأعمال الجليلة التي قام بها الملك عبد العزيز في سبيل تحقيق الأمن الاجتماعي توطين البدو بمختلف السبل لتأليفهم تارة، وبالإكثار فيهم من المطاوعة بتعليمهم تارة، وبإنشاء الهِجَر تارة، وبربطهم بأسباب التحضر والتمدن تارة، "فبعد أن أخضع "جبل شمَّر" "والإحساء" انبرى لمواجهة مشكلة البدو المزمنة وما درجوا عليه من شن الغارات على جيرانهم وعلى عابري السبيل والتنقل من مكان إلى مكان حسب مشيئتهم، وهو أسلوب للحياة ينعدم معه الأمن والاستقرار فعقد عبد العزيز العزم على وضع حد لهذا الأسلوب.

وإدراكا منه بأن أية محاولة لإقامة نظام سياسي مستقر في البقاع التي تم فتحها سوف تصطدم حتما بالولاء القبلي الذي هو أكثر رسوخا وأبعد عمقا من الولاء للأسس والمضامين السياسية والإدارية الجديدة التي يريد إقامتها، فقد وضع عبد العزيز خطة ذكية ذات مرحلتين، تتمثل أولاهما في إيفاد دعاة إلى القبائل المختلفة لتعليمها مبادئ الإسلام الأساسية وتشجيعها على الاشتغال بالأعمال الزراعية، أما المرحلة الثانية فتتمثل في توطين البدو في مستوطنات زراعية "تعرف بالهجر" أقيمت في نجد، وقد نجح أول هذه المشروعات وتلته

---

١ ابن سعود - كنث ص 18.
٢ ابن سعود - كنث ص 146 – 147.
٣ ابن سعود - ص 18 – 19.

مشروعات أخرى كثيرة "60 مشروعا"١.

ويذكر الزركلي أنها بلغت 153 هجرة٢.

وقد أثمرت هذه الخطة الإصلاحية إذ تحول معظم البدو من البداوة إلى المدنية وسلكوا سبيل العلم والعمل وبرّز منهم العديد في مختلف مجالات الحياة، وهذه منة من الله سبحانه وتعالى، إذ التحضر والتمدن من نعم الله على الإنسان ومن أهم عوامل استقرار مجتمعه لذا كان ذلك من مقاصد الدين، قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: **{وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}** [يوسف: 100] فجعل التحول من البداوة نعمة.

وعودا على بدء:

فلا جرم أن للدولة الإسلامية المعاصرة أهمية قصوى على اختلاف المحاور التاريخية والواقعية، وهي أهمية استراتيجية تتنامى في ظروف التحديات الثقافية التي يعيشها جيلنا، والملاذ بعد الله تعالى ديننا الحنيف الذي ارتضاه لنا.

قال الملك عبد العزيز: "كل حرية باطلة إلا حرية الإسلام، والإنسان لا ينفع إلا بالدين، ونحن لا نبغي محاربة أوربا، وإنما نطلب حقوقنا باتحادنا فنعتصم بالله، والإسلام أكبر وسيلة وأكبر حصن، هو أكبر من مزايا الحسب والنسب فيجب على المسلم محبة دينه وشعبه ووطنه"٣.

وبعد: فإن المملكة العربية السعودية شخصية مستقلة في قيادتها وأرضها وأهلها ودعوتها ورسالتها، فهي على رسم منهاج النبوة لا غير.

وقد هيأ الله تعالى حفظا لدينه ورعاية لبيته الحرام ومسجد نبيه صلى الله عليه وسلم للمملكة قيادة تعمل دائبة على تميز هذه البلاد بتلك الخصائص حفظا لمعالم الدين القويم من الاندراس، وحماية لبيضة الإسلام، ورفعا لراية التوحيد ما بقيت في الأرض حياة، وتلك نعمة امتن الله بها على المجتمع السعودي خاصة وعلى المسلمين عامة.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55].

رحم الله الملك عبد العزيز وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا، ونسأله تعالى أن يديم علينا وعلى المسلمين جميعا نعمة الأمن والأمان والسلامة والإسلام والتوحيد والتأييد، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

أولا - القرآن العظيم.

ثانيا - من المراجع العامة "مرتبة على حروف المعجم".

- ابن سعود سيد نجد وملك الحجاز تأليف كنث وليمز، تعريب كامل صموئيل. ط 1352هـ /1934م المطبعة الأدبية – بيروت.
- الأصالة والمعاصرة، المعادلة السعودية د. فؤاد عبد السلام الفارسي. ط: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر جدة.
- تاريخ نجد، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، تأليف سنت جون فيلبي. تعريب: عمر الديراوي، منشورات المكتبة الأهلية – بيروت.
- تاريخ نجد "روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام" حسين بن غنام. تحقيق د. ناصر الدين الأسد ط1403هـ الرياض.
- تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين د. مديحة أحمد درويش. ط: دار الشروق 1410 هـ /1990م جدة.
- تفسير ابن كثير ط: دار السلام 1413هـ/1992م – الرياض.

---

١ الأصالة والمعاصرة ص 37.

٢ الوجيز ص 169 – 170.

٣ الوجيز ص 217

- توحيد المملكة العربية السعودية ألفه بالإنجليزية محمد المانع، نقله إلى العربية: د. عبد الله العثيمين - ط 1402هـ.
- الجامع الصحيح "صحيح البخاري" محمد بن إسماعيل البخاري "مع فتح الباري" ط المطبعة السلفية 1380هـ مصر.
- جريدة أم القرى – عدد الجمعة 3 ربيع الأول 1345 هـ الموافق 10 سبتمبر 1926م. وأعداد أخرى سبقت الإشارة إليها في هوامش البحث.
- الدرر السنية: عبد الرحمن بن قاسم القحطاني، ط: 1385هـ / 1965م.
- الرحلات الملكية: د. مدحت شيخ الأرض وزملاؤه، إصدار دارة الملك عبد العزيز ط 1416ه.
- سنن أبي داود السجستاني، ترقيم عزت عبيد دعاس، ط: 1388هـ سورية.
- سنن ابن ماجة القزويني ترقيم: محمد عبد الباقي.
- سنن الترمذي، ترقيم: أحمد محمد شاكر ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم: محمد عبد الباقي "مع شرح النووي" ط: دار القلم 1407 هـ/1987م بيروت.
- صور من حياة عبد العزيز – يرويها طلال بن عبد العزيز – إعداد كمال الكيلاني ط 1411هـ/1990م دار الشواف للنشر والتوزيع – الرياض.
- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي - د. صالح بن عبد الله العبود - ط: الجامعة الإسلامية 1408هـ.
- عنوان المجد في تاريخ نجد – عثمان بن بشر النجدي ط: مكتبة الرياض الحديثة.
- قدسية الحرمين الشريفين - إعداد مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ط: 1408هـ/ 1988م هجر للطباعة والنشر - القاهرة.
- مجلة اليمامة - العدد 1473 السبت 19 جمادى الأولى 1418 هـ / الموافق 20 سبتمبر 1997م.
- مسئولية الدول الإسلامية في الدعوة ونموذج المملكة العربية السعودية - د. عبدالله بن عبد المحسن التركي ط 1416هـ وزارة الشئون الإسلامية – الرياض.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني - الموسوعة الإلكترونية - صخر، مصر.
- المعاصرة في إطار الأصالة - أنور الجندي ط 1407هـ/1987م دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة.
- مع عاهل الجزيرة العربية: عباس محمود العقاد، ط: المكتبة العصرية بيروت.
- مقدمة ابن خلدون ط: دار الكتب العلمية - بيروت 1413هـ / 1992م.
- الملك الراشد: عبد المنعم الغلامي - ط: دار اللواء للنشر - الرياض.
- الملك عبد العزيز والمملكة العربية السعودية المنهج القويم في الفكر والعمل: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ط: الزهراء للإعلام العربي 1409هـ/ 1989م - القاهرة.
- الملك عبد العزيز ووضع قواعد النظم القضائي في المملكة - د . سعود الدريب ط: 1408هـ/ 1988م دار المطبوعات الحديثة – جدة.
- الموسوعة العربية العالمية – نشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ط: 1416هـ/1996م الرياض.
- الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز: خير الدين الزركلي ط: دار العلم للملايين 1984م بيروت.